

حَمَائِلُ الْبَيْتِ

فِي الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

الأستاذ الدكتور

وهبة الزحيلي

دار المكي

الطبعة الأولى 1431هـ - 2010م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا

ص.ب 31426 هاتف 2248433 فاكس 2248432

e-mail: almaktabi@mail.sy

دار المكتبي

للطباعة والنشر والتوزيع

www.almaktabi.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله تعالى ، والصلاة على رسوله الأمين وآله وصحبه الطيبين الطاهرين ، وبعد :

فإن الإسلام الحنيف جاء لإصلاح الفرد والمجتمع ، وهو رحمة خالصة بالإنسان والنبات والحيوان والجماد ، ونحو ذلك من أنواع المخلوقات في البر والبحر والجو ، لقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

ومقتضى هذا أن يكون المسلم أداة صالحة نافعة لإعمار الكون ، وتقْدُم الحياة ، وسلامة البيئة التي هي أمانة في عنق الإنسان من أجل خيرة نفسه ، لأن كل ما خلق في الكون إنما هو لنفع الإنسان ، أخذاً من قول الله تعالى :

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة : ٢٩] .

أي : خلق لكم الأرض وما فيها ، لتتفعوا بكل ما فيها ، وخصصها بكم على جهة الانتفاع منكم .

وفي آية أخرى : ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾

[الجاثية : ١٣] .

ومن مقتضيات الانتفاع : إحسان العمل ، ومقابلة النعمة بالوفاء والحماية والصون ، وشكر الفضل الإلهي ، لتدوم المنفعة وتبقى ، فبالشكر تدوم النعم ، لا أن تشوه وتقنى ، فإن ترك إكرامها تعريض لها للفقدان ، وتشويهها وإفنائها يكون بإفساد منافعها ، وتلوّث بيئتها وجمالها وإتقانها ، لذا تكرر التذكير الإلهي بهذا الواجب - واجب الانتفاع المنضبط ، والحفاظ على مصادر المنفعة سليمة غير معيبة ، وجميلة غير قبيحة ، فقال الله سبحانه : ﴿ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [الجاثية : ١٢] ومن أجمل ما ورد في السنة حديث : « أحسنوا جوار نعم الله »^(١) .

* * *

(١) رواه الهيثمي وأبو يعلى وغيرهما .

معنى البيئة ومكوناتها

البيئة في اللغة : المنزل ، الحال ، ويقال : بيئة طبيعية ، وبيئة اجتماعية ، وبيئة سياسية ، وبيئة خارجية ، وبيئة داخلية . ويقال أيضاً : « إنه حسن البيئة » .

والبيئة الذاتية : أحد فروع علم البيئة ، الذي يبحث في أحوال البيئة المحيطة بنبات معين . وبيئة الأعماق : مجموعة الظروف والعوامل الطبيعية والكيميائية التي تسود في أعماق البحر فيما يزيد على ألفي قدم ، كالضوء والحرارة ، والضغط ، والحركة ، والأملاح ، والغازات الذائبة وغيرها .

والبيئة بنحو عام : جميع العوامل الأحيائية واللاأحيائية لأحد المواقع .

والمراد بالبيئة هنا في البحث : جميع الأحوال والظروف المحيطة بالإنسان في الداخل والخارج . ومكونات البيئة : هي العناصر الأربعة التي تعرف بالأغلفة : الغلاف الجوي ، الغلاف الصخري ، الغلاف المائي ، الغلاف الحيوي

وهذا المعنى يدل على أن ما بين الإنسان وبيئته تفاعلاً واضحاً ، فهو يؤثر فيها ويتأثر بها ، وتكون ردود الفعل الحسنة والسيئة متبادلة ، ولكن إهمال الإنسان وقلة وعيه وطيشه ، وعدم مبالاته بالآثار والانعكاسات الحاصلة ، يجعله قليل الإدراك للمخاطر ، على المستوى

البعيد ، فيتورط في الإساءة أحياناً ، ولا يفكر في الآثار المترتبة على فعله ، ثم يكون الندم ، ولات ساعة مندم .
وهذا يدعونا إلى تبيان عواقب إهمال حماية البيئة ، وآثارها الضارة على الإنسان والحيوان والنبات .

* * *

تلوث البيئة وأسبابه وأضراره وعوامل التلوث وآثاره

خلق الله تعالى الكون سماءه وأرضه ، بره وبحره ، أنهاره وشواطئه في أحسن حال ، وأبهى جمال ، وأحكم إتقان ، فكان الإنسان الأول سعيداً بنظافة البيئة التي حوله ، يتفياً ظلالتها ، ويستعذب جمالها ، وتحقق له الراحة والطمأنينة والاستقرار ، فلا يتعرض لكثير من مشكلات الحياة المعاصرة ، الآهلة بالسكان والمزدحمة البنيان ، والمعركة الأجواء ، والمملوءة بالمشكلات اليومية الكثيرة .

وسعد الإنسان بالعيش في القرى والمدن ، لأنه مدني بالطبع ، لكنه لم يبذل العناية الكافية للحفاظ على جمال القرية والمدينة ، وأهمل في تنظيفها وترتيبها ورعايتها العامة ، وقصر همه على حماية مصالحه الذاتية أو الفردية ، ولم يكن مستواه الاجتماعي على النحو الكافي .

أسباب التلوث : تعددت في عصرنا الحاضر مظاهر التلوث البيئي ، وتباينت في الأقطار درجاتها بحسب رقي الشعوب ودنوها ، وكان أهم أسباب التلوث ما يأتي :

الإنسان وآثاره : الإنسان : هو المصدر الغالب للتلوث ، بسبب سوء تصرفه ، وقلة عنايته بالنظافة ، وجموح أطماعه في التفوق وحب الغلبة ، فأساء إلى البيئة الزراعية بترك مخلفاتها تنتشر ، وإلى البيئة الصناعية بنشر آثارها الضارة ، وقلة الاحتياط في تطويق أنواع الدخان

المتصاعد ، وما تنشره الآلات الصناعية الكثيرة من حرارة ، وذرات سوداء بسبب احتراق الوقود وتطاير الرذاذ الكيماوي الضار ، وأساء أيضاً إلى بيئة التجارة ، فتكدست الشوارع والأحياء بفضلات التعليل والشحن والنقل الداخلي والخارجي .

وأهمل كثير من الناس العناية بالنظافة في المنزل والمجلس والثياب أو الملابس والبدن والأعضاء والأماكن العامة والأحياء الخاصة والعامة ، وشوَّهوا جمال المدينة ورونقها ، وألقوا المخلفات والأطعمة والزجاجات المحطمة والفضلات في غير الأمكنة والأزمدة المخصصة لها ، مع أن الحاويات متوافرة وكثيرة .

ولم يقم عمال التنظيف بما يجب عليهم من الكنس والجمع والنقل والتخلص من القمامة ، وإتلافها إتلافاً سليماً بحيث لا تتسرب آثار الأدخنة إلى القرى والمدن المجاورة ، وشاع الكسل والتمرد بين فئات كثيرة .

وكان من أسوأ ما تعرَّضت له مياه البحار والشواطئ والأنهار الداخلية هو مصبّ مياه المجاري الملوثة والحاملة مختلف الجراثيم الفتاكة والأمراض السارية ، حتى تنبَّهت الحكومات إلى تلك المخاطر ، وغيَّرت مصبّ المجاري وحوَّلتها إلى الصحارى ، وكانت وما تزال مدن كثيرة تتناول الخضراوات والبقول والثمار التي تسقى من هذه المياه .

وتسبَّب الإنسان في إحداث ظاهرة التصحر ، بقطع النباتات والأشجار ، وبناء المنازل محلها ، وامتدت يد الإنسان العدوانية إلى الغابات فأحرقتها أو قطعها مع قلة المياه وجفاف الينابيع .

واستبد جنون التفوق الصناعي في الكثير من الدول إلى بناء مئات المعامل في الأحياء السكنية أو القرية من ديار السكان ، ونشرت هذه المصانع أدخنتها وآثارها السيئة ، فأفسدت الهواء وعكرت صفو

الحياة ، وظهرت أمراض كثيرة بين عمال المصانع ، وامتد ضررها إلى المجاورين .

ونشرت السيارات ونحوها غازاتها السامة وحرارتها مما أدى إلى ارتفاع درجة الحرارة في المدن .

وتجرت بعض الدول الصناعية على شحن سفنها بالنفايات النووية والغازات الكيماوية السامة وإفراجها في شواطئ بعض البلاد المتخلفة ، من غير تقدير للمخاطر ، وإيذاء لغيرهم من المستضعفين ، وهذا لون من ألوان الاستكبار والاستهانة بالآخرين .

وفي الجملة : إن الإنسان هو في الغالب أداة التلوث العاتية ، وقد تؤدي الأحداث العامة كالحروب والكوارث من الفيضانات والحرائق والزلازل وانتشار الأمراض البوائية ، وتركز الأوبئة السامة في بعض المناطق إلى التلوث ، مما يوجب على الإنسان تفادي ذلك ، وعلاج الأحوال الطارئة بنحو من السرعة والجدية التامة ، حتى إن الإنسان أصبح هو الجاني على نفسه بالجناية على بيئته .

وهذا هو الذي نبّه إليه القرآن الكريم في قوله تعالى :

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم : ٤١] .

ومظاهر الفساد كثيرة ، منها العام ومنها الخاص ، فالعام : كجفاف الأنهار والآبار والينابيع ، وفيضانات المحيطات واحتمال ذوبان الجليديات ، فيرتفع منسوب المياه في كثير من المحيطات والبحار ، ويؤدي الارتفاع إلى اختفاء معالم كثير من المدن الساحلية . كما أن من مظاهر التلوث العامة : ازدياد الحرارة صيفاً في العامين الأخيرين في أوربة وغيرها وفي أمريكا ، وبلدان الشرق الأوسط ، مما لم يسبق له

مثيل ، وأصبحت التغيرات المناخية موضع عناية بالغة ، ولاسيما بعد اكتشاف ثقب الأوزون : وهو التصدع في سماء الكرة الأرضية ، مما أسهم في زيادة معدّل الحرارة والاضطرابات المناخية .

وأدى إهمال حماية البيئة في داخل بلاد بعض الدول إلى الكثير من أمراض التنفس والغدد ، وانتشار الأوبئة ، وتفاعل الميكروبات أو الفيروسات مع بعضها بعض ، وتوليد أمراض جديدة .

وتوقع العلماء تغيّر خريطة الأرض في العقود الخمسة القادمة ، وتبدل أشكال الحياة إذا ظلت الأوضاع أو الأحوال على حالها ، وطالبوا بعقد مؤتمرات لاحتواء أزمة البيئة العالمية ، مثل مؤتمر هلسنكي ومؤتمر مونتريال في كندا عام ١٩٨٧ ، وتمخضه عن بروتوكول مونتريال في خريف عام ١٩٨٧ ، وصادقت عليه الدول الصناعية الكبرى ، لدراسة أسباب الأزمة الخاصة بالأوزون ، ووافقت ٢٤ دولة صناعية على تخفيض إنتاجها بنسبة ٥٠٪ حتى عام ١٩٩٩ من مركبات « الكلورو فلورو كاربونات » المستخدمة في شتى أشكال البخاخات لمستحضرات التجميل وأثاث المنازل والمشافي ووسائل النقل ، وصناعة الثلاجات ووسائل التنظيف المذيبة ، ثم طرأ تعديل على هذا البروتوكول يقضي بحظر كامل على إنتاج هذه المركبات في نهاية التسعينيات . وفي عام ١٩٩٢ عُقد في « ريودوجانيرو » بالبرازيل مؤتمر لحماية الغابات ، باسم « مؤتمر قمة الأرض » وتمخض فقط عن إقرار مبادئ عامة لحماية التربة والبيئة والأرض ، ولم تعالج المشكلة من جذورها بسبب جشع الشركات وحرصها على تحقيق أرباح غير محدودة من جرّاء قطع الغابات في الأمازون .

أضرار التلوث : إن تلوث البيئة خطر محقق على الحياة ذاتها ، وعلى المدن والقرى ، وعلى الإنسان في أحوال أنشطته المتعددة ،

وعلى الصحة العامة والخاصة ، فتكثر الوفيات ، وتشوه مظاهر جمال المدينة والقرية ، بل يُعَصَف بها ، فتصبح الحياة كثيبة حزينة بائسة ، وتتأثر أنشطة الإنسان كلها ، فيضعف إنتاجه أو ينعدم ، ويدمر نفسه بنفسه ، وتنتشر أمراض كثيرة ومعقدة ، وتعم أوبئة فتاكة تهدد الحياة بالتراجع ، ويكون فساد البيئة سبباً يقضي على كثير من مظاهر الحياة النباتية والحيوانية والإنسانية .

ويكون تسرب المواد المشعة ، وانفجار المفاعلات النووية ، كانفجار مفاعل تشيرنوبل النووي في روسيا عام ١٩٨٩ أخطر المضار التي تؤدي إلى التشوه الجسدي ، وظهور الأمراض المستعصية ، وإضرار التربة والمزروعات والخضار ، ويصاب الناس بذعر شديد ومخاوف كثيرة .

وصاحب ظهور الثورة الصناعية الكبرى في أوربة واكتشاف الكربون السام تدمير متواصل للبيئة ، فقطعت الغابات ، وأبیدت المراعي ، وقلعت الأشجار التي هي من أكبر عوامل تنقية الأجواء وتصفية الهواء ، وانتشرت أدخنة مداخن المصانع التي ملأت الهواء بالسموم .

ثم أُلقيت نفايات المعامل في الأنهار والبحار ، فتضرر النبات والحيوان والأسماك ، وأضر كل ذلك بصحة الإنسان .

وكان قطع أشجار غابات الأمازون طمعاً في أثمان الأخشاب سبباً في تهديد مصادر المطر وكميته .

وتسبب إلقاء أو دفن النفايات النووية الناجمة عن الصناعات الذرية إلى إيجاد مشكلات بيئية متنوعة ، لوّثتها ، وأضررت بالبلاد والسكان المجاورين .

وأدى تعاظم ثقب الأوزون في الأجواء لما يوازي الثلث منه ، أو

ضعفي مساحة الولايات المتحدة الأمريكية ، لزيادة حرارة الأرض وغير ذلك من المشكلات الغامضة . وكان تزايد نسبة الأوزون في غلاف الأرض بسبب احتراق وقود السيارات سبباً في تخرشات العيون واحتقانها ، وتلوث الرئتين ، والتسبب في أمراض السرطان .

وحينما تمتزج المواد الكيماوية الخطيرة المعروفة باسم (الآريلامينات) مع غاز الأوزون ، ينتج خليط من الغاز القتال الذي يسبب سرطان الرئة .

كما أن استنشاق دخان التبغ مع الأوزون يؤدي لإصابات سرطان الرئة بنسبة كبيرة .

وتقع أضرار كبيرة في الطبيعة كهجرة الأسماك ، وموت الحيوانات المائية ، وتصدّع تربة الحقول والمزارع والغابات ، وتراجع بسبب ذلك المحاصيل الزراعية ، عند نزول أو هطول المطر الحامضي الذي ينشأ من الغازات السامة ، التي تلقيها مداخن المصانع كأوكسيدات الكبريت ، ثم تمتزج مع قطرات المطر المتجمعة في الغيوم قبل هطولها . وهذا فساد بحري ، يعقبه فساد بري ، حيث يتأذى القاطنون في المدن الصناعية الممطرة ، وتتضرر هياكل الأبنية الخارجية ، وصفائح الآلات والسيارات والمراكب .

وكذلك غاز الهالون المستخدم في أجهزة الكومبيوتر للتنبيه من خطر الحرائق : يحدث أضراراً بطبقة الأوزون ، سواء مع وجود أشعة الشمس أو دونها^(١) .

* * *

(١) انظر كتاب « سنريهم آياتنا » للأستاذ عدنان السبيعي : ص ٥٩-٦٢ .

الإنسان والبيئة

البيئة متلازمة مع الإنسان ، فإن كانت نقية صالحة حسنة ، كان الإنسان صحيحاً سليماً معافى ، وإن كانت ملوثة فاسدة ، كان الإنسان مبتلىً بأمراض عديدة ، وهموم كثيرة ومشكلات معيشية مزعجة وأليمة قد تؤدي بحياته .

فما على الإنسان إلا أن يكون أميناً على البيئة ، فهي أمانة في عنقه ، وكل إنسان مسؤول عن توابعه ، ولا يتحمل غيره في الدرجة الأولى مثل نصيبه من الأذى الذي يصيبه ، بسبب ما جنت يده . ويكون إهماله في رعاية البيئة وما يتسبب عن تلوثها من أوبئة وأمراض ضربة قاصمة تهدد حياته ووجوده . وعدم الوعي أو عدم الإدراك العام لمخاطر البيئة ليس هو أول ظلم يلحقه الإنسان بنفسه ، بسبب طيشه وترك أعمال فكره ، فهناك مظالم كثيرة تنبع من الإنسان ذاته ، ثم يجد العلقم المرّ في نهاية المطاف ، وهذا طبع يحتاج دائماً للتربية والتوجيه والتهذيب ، حتى لا يهوي بصاحبه إلى مستنقعات المذلة والهوان ، أو المرض والموت ، وقد حذر القرآن الكريم الإنسان من عواقب الإساءة لنفسه ، ومن نكران النعمة ، وترك شكرها وجحودها والإساءة إليها ، فقال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] .

وعلى الإنسان العناية في الدرجة الأولى بالبيئة السكنية ، فيعنى بنقاء

الهواء ، وترك تلوثه بقدر الإمكان ، حتى لا يؤدي ذلك إلى الخلل في النمو العقلي الناتج عن التعرض للرصاص المستعمل في المعامل والمؤسسات . ويؤدي هذا التلوث إلى تدهور في الجهاز العصبي والعقلي للأطفال الذين يعيشون قرب الطرق الرئيسية . ويتخلص الإنسان من القمامة الصلبة الناتجة من المصانع ، والقمامة السائلة (وهي التي تنتقل مع الماء الحار) حتى لا تتسرب إلى المياه الجوفية والأنهار والشواطئ . وينبغي العناية ببيئة المنزل ، لأن البيوت المغلقة مثلاً تتولد فيها أمراض مختلفة ، كانتشار الفطريات الناتجة من الرطوبة التي تسبب أمراضاً جلدية ونفسية ، كما أن البيوت الفقيرة تصير مأوى لكثير من الحشرات الضارة . وعلى الدولة التخلص من أخطار وجود المصانع في المناطق السكنية ، لاستعمالها مواد سامة أو خطيرة في الإنتاج .

* * *

البيئة والمدنية والحضارة

المدنية والتقدم العمراني ، وتحضر الحياة والإنسان^(١) هما نتاج الإنسان ، وهما الحاكم الدقيق الحساس على تصرفاته وأفعاله ، وأنشطته وفعالياته ، فبمقدار الجمال والإتقان والتقدم في المدنية والحضارة ، يكون الإنسان صانع الحضارة بشطريها المادي والمعنوي . والمدنية بماديتها هي رمز الفخار والاعتزاز ومحط أنظار العالم ، سواء في عالمية المدنية ، أو في خصوصية الحضارة .

وبمقدار إهدار قيم الجمال والكمال وتدمير بيئة الإنسان ، يكون سلوك الإنسان غير مدني ولا حضاري أصلاً . فإذا شاهد المرء في مشيه في أي مكان القاذورات مثلاً ملقاة في الزوايا والمنعطفات وعلى الشواطئ ، وفي الأماكن العامة من حدائق وجسور وممرات ونحوها ، كان أهل تلك المواضع متخلفين ، بعيدين عن الحضارة ، بل وأعداء لها .

(١) الحضارة : مجموع المفاهيم عن الحياة الدنيا وعما قبلها وعما بعدها ، وهي خاصة في كل أمة من الأمم ، أي إن للحضارة بُعدين : بُعداً روحانياً وأخلاقياً ، وبُعداً مادياً ، والبعد المادي هو المدنية .

والمدنية : هي الوسائل والأدوات التي تساعد على حل مشكلات الحياة وجعلها أسهل وأفضل ، وهي عامة ، ولا تختص بها أمة من الأمم ، وليس لها علاقة بالعقائد .

ويكون الترتيب والنظام والنظافة بمختلف أشكالها هي مقياس شخصية الإنسان ومعرفة مكانته العالية ، أو انحدار تقديره ومستواه الثقافي والاجتماعي والإنساني . والإنسان السوي والمتحضر هو الذي يسعد وينعم بجمال البيئة ونقاوتها ، ونظافتها وطيورها وحدثاتها ، وأشجارها ، ومزروعاتها ، وطهارة أو نظافة مياهها العذبة والملحة .

والمتخلف أو الجاهل هو الذي يشقى بما حوله من قاذورات وميكروبات وديدان ، وهوام أرضية ، ومناخ حارّ شديد الحرارة ، أو بارد شديد البرودة .

فتكون سلامة البيئة ضرورة حتمية لحماية النفس والأهل والأولاد والجيران ، بل والحياة كلها ، من كل ألوان السوء والشر ، والفساد والتخلف ، والضياع والتشتت .

ويكون الحفاظ على البيئة من أخطار التلوث واجباً مرغباً فيه ، ومطلوباً شرعاً ، لأن الحياة التشريعية السليمة هي المناخ الملائم والبيئة اللازمة لتطبيق شرع الله ودينه . وإذا لم تتوافر بيئة تطبيق الشريعة على الوجه الأكمل والأنسب ، فلا تظهر الصورة الصحيحة للإسلام بغير ذلك أو بغير معرفة أحكام الحلال والحرام المنزلة من عند الله تعالى ، ويكون الاقتران بالبيئة عامل نجاح أو سبب فساد وإفساد ، والإنسان ابن البيئة ، شاء أم كره . وكل عوامل تقدم الأمم والشعوب مرتبطة بتحسين ظروف المناخ ، وأحوال البيئة . والعكس صحيح أيضاً ، فإن عوامل انهيار الأمم : تؤثر البيئة في مجراها وتعكس تصورات الأمة في شأنها ، أفراداً أو جماعات ، فالعاقل : هو من يحسن ظروف بيئته ، ويحمي جمالها ، ويتجاوز سيئاتها وسلبياتها . والجاهل : هو كل من يعث في بيئته ، أو يهملها ، ويجعلها مباءة للقاذورات .

طرق الوقاية من التلوث والعلاج الدائم

من المعلوم أن الوقاية خير من العلاج ، وهو مبدأ إسلامي وإنساني وعقلي ، يتردد في كل الأوساط والحلول والمشكلات ، حيث يقول علماؤنا : استعدوا للبلاء قبل نزوله ، لأن تجنب الوقوع في المشكلة أو الكارثة يحمي الناس والبلاد والإنتاج والطبيعة من المضار والمفاسد ، ويكون أقل كلفة ، وأكثر ربحاً ، وأبعد عن الخسارة .

والله تعالى أبدع الخلق ، والكون ، والبيئة ، والطبيعة ، وجعل كل ذلك في أحسن تقويم ، وأكمل تكوين ، وأجمل بنیان ، ولم يترك الله خللاً ، أو نقصاً ، أو عيباً أو تشويهاً في شيء ، لأن الله سبحانه مصدر الكمال والجمال ، فهو كما قال :

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] .

وهو سبحانه كما قيل عنه :

فهو الجميل والجليل والولي والطاهر القدوس والرب العلي ومقتضى هذا ضرورة اتقاء كل ما يؤدي إلى الخلل ، والابتعاد عن أساليب وأسباب التدمير الإنساني للبيئة ، والحفاظ على كمالها وجمالها وخيراتها ونعمها . قال الله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴾ ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ [الملك : ٣-٤] .

وقال النبي ﷺ : « إن الله جميل يحب الجمال »^(١) .

فالأصل العام للمحافظة على الأشياء والجمال والصحة والبيئة : هو الوقاية ، وقال الأطباء قديماً : « درهم وقاية خير من قنطار علاج » . والنظافة وحسن الهندام ، وجمال العمران ، ومنع المضار والأوبئة : من أهم أساليب حماية البيئة من التلوث والقبح والتخريب والتعكير ، النابعة من إرادة الإنسان وممارسته .

وإن إلقاء المخلفات وعدم إلقاء الأوساخ ، وترك إسالة المياه القذرة في الشوارع ، من بدهيات الضروريات للوقاية العامة والخاصة ، أما إذا حدث خلل كوني من غير سبب أو تسبب إنسان في إحداث عيب أو نقص ، كان على البشرية جمعاء المبادرة للعلاج الدائم ، حتى لا يتسع العيب ، ويستمر الخلل ، وتتضاعف المشكلات ، ومن الحكمة المعروفة : إصلاح الأشياء على عجل ، حتى لا يتسع الخرق على الراقق .

* * *

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

موقف الشريعة الإسلامية من حماية البيئة

لا نجد بعد البحث والتتبع والاستقراء ديناً أو نظاماً يعنى بالبيئة ونظافتها مثل الإسلام الذي جعل الطهارة والنظافة فرضاً لازماً ، وشرطاً مطلوباً في جميع أحوال الإنسان ، وفي كل حال محيط به ، أو يقوم هو به ، وبخاصة في أثناء العبادات ، فقال الله تعالى في أوائل ما نزل به القرآن : ﴿ وَتَبَاكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدرثر : ٤] وقال النبي ﷺ : « الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ »^(١) . والأمر بطهارة الثياب أو بتنظيفها وتجميلها سبب واضح لنظافة البيئة وحمايتها من أي مصدر من مصادر التلوث ، لذا كان تجميل الهيئة وإصلاح اللباس أدباً عاماً من آداب الإسلام الكبرى ، قال النبي ﷺ : « إنكم قادمون على إخوانكم ، فأصلحوا رِحَالَكُمْ ، وأصلحوا لباسكم ، حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس ، فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التفحش »^(٢) . ولا فرق في عناية الإسلام بالبيئة بين وقت السلم أو وقت الحرب .

١- الشريعة الإسلامية وحماية البيئة في وقت السلم :

أمر الإسلام بالنظافة في جميع الأحوال والأمكنة والأزمنة ، وجعل ذلك ملازماً لحال المسلم في عبادة ربه ، وفي ممارسة عمله ، وفي

(١) رواه أحمد والترمذي عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه .

(٢) رواه أبو داود في سننه (٣٨٠ / ٢) . والفحش : ما اشتد قبحه من ذنوب ومعاصي من الأقوال والأفعال . والتفحش : هو تكلف الفحش وتعمده . وتلويث البيئة تفحش .

متابعة جميع أنشطته الخاصة والعامة ، حفاظاً على نقاء البيئة وسلامتها ، والحرص على جمالها ، وترك جميع الأسباب المؤدية للإساءة إليها ، وإلى المجتمع ، والوسط المعيشي للإنسان ، قال النبي ﷺ : « تنظفوا بكل ما استطعتم ، فإن الله تعالى بنى الإسلام على النظافة ، ولن يدخل الجنة إلا كل نظيف »^(١) .

والنظافة أنجح علاج وقائي من الأمراض والأوبئة التي تضر البيئة والمجتمع ، ولا بد من تكرارها يومياً وأسبوعياً وبعد مناسبات عديدة ، وذلك بجعل الوضوء والغسل فرضاً متكرراً للعبادة ومندوباً حين الذهاب للاجتماعات كالمسجد والجمعة والعيد ونحو ذلك . وامتدح الله تعالى المتطهرين من آثار النجاسات ، فقال سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

وأثنى الله على أهل قباء الذين يتبعون الماء للأحجار و نحوها من كل قالع طاهر جامد في الاستنجاء ، فقال الله تعالى :

﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٨] .

وفرضية الوضوء وغسل الأعضاء الظاهرة المتعرضة للتلوث وفرض الغسل من الجنابة : معروفة في القرآن والسنة في آية : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ [المائدة : ٦] .

وقال النبي ﷺ : « لا يقبل الله صلاة أحدكم إذا أحدث حتى يتوضأ »^(٢) . وتكرار الوضوء ولو من غير حدث أو نقض : أمر مشروع

(١) رواه الطرسوسي في جزئه ، وهو ضعيف ، لكن الأحاديث الضعيفة يعمل بها في فضائل الأعمال .

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه .

مرغَّب فيه ، للحديث : « الوضوء على الوضوء نور على نور »^(١) . « من توضعاً على طهر كتب الله له به عشر حسنات »^(٢) . « الوضوء قبل الطعام حسنة ، وبعد الطعام حسنتان »^(٣) . أي غسل الأيدي . والغسل مندوب إليه يوم الجمعة ، لحديث « غسل الجمعة واجب على كل محتلم »^(٤) . ويندب الغسل أيضاً لصلاة العيدين ، وللإحرام بحج أو عمرة ، ولدخول مكة ، ووقوف عرفة ، ومبيت مزدلفة ، وطواف زيارة (فرض) وطواف وداع ، ولغسل الميت ، ولصلاة الكسوف والخسوف ، وللمستحاضة ونحوها من المصائب به أو السلس ، وللإفاقة من جنون أو إغماء أو سكر ، وعند حجامه ، وفي ليلة القدر وليلة النصف من شعبان (ليلة البراءة) وفي حال الفزع من مخوف أو ظلمة أو ريح شديدة ، ولتائب من ذنب ، ولقادم من سفر ، ولمن أصابته نجاسة وخفي مكانها .

ويسن كنس المسجد وتنظيفه وإزالة جميع الأوساخ منه ، ونهى النبي ﷺ عن التبول بأبواب المساجد^(٥) ، وعن البول في الماء الجاري^(٦) . أو الراكد^(٧) . وفي المغتسل^(٨) . وفي الجُحر (ثقب أي شيء)^(٩) .

-
- (١) رواه رَزِين في مسنده ، وهو حديث ضعيف .
 - (٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر ، وضعَّف الترمذي إسناده .
 - (٣) رواه الحاكم في تاريخه عن عائشة رضي الله عنها ، وهو ضعيف .
 - (٤) أخرجه الجماعة (أحمد وأصحاب الكتب الستة) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، مرفوعاً .
 - (٥) رواه أبو داود في مراسيله عن مكحول (الترغيب والترهيب ١/ ١٣٦) .
 - (٦) رواه الطبراني في الأوسط بإسناد جيد عن جابر (المرجع والمكان السابق) .
 - (٧) رواه مسلم وابن ماجه والنسائي (المرجع والمكان السابق) .
 - (٨) رواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن ، والحاكم وقال : صحيح الإسناد عن بكر بن ماعز (المرجع والمكان السابق) .
 - (٩) رواه أحمد وأبو داود والنسائي عن عبد الله بن سرجس (المرجع السابق: ص ١٣٧) .

وأمر النبي ﷺ بتنظيف البيت أو المنزل ، والشارع والساحات والأماكن العامة ، فقال : « نظّفوا أفناءكم وساحاتكم ولا تشبهوا باليهود »^(١) . وقال أيضاً : « نظّفوا أفنيّتكم ، ولا تشبهوا باليهود »^(٢) .

ومن أخطر مصادر تلوث البيئة : البراز والتبول في مواضع تجتمع الناس ، وبرك الماء ، والطرق العامة ، وتحت ظلال الأشجار التي يجلس الناس عادة فيها ، وعدّ ذلك من موجبات لعنة الله تعالى والناس ، فقال النبي ﷺ : « اتقوا الملاعن الثلاث : البراز^(٣) في الموارد^(٤) ، وقارعة الطريق^(٥) ، والظل^(٦) . والملاعن : مواضع اللعن ، قال الخطابي : والمراد هنا بالظل : هو الظل الذي اتخذته الناس مقبلاً (موضع جلوس وراحة) ومنزلاً ينزلونه ، وليس كل ظل يحرم قضاء الحاجة تحته ، فقد قضى النبي ﷺ حاجته تحت حائش^(٧) من النخل ، وهو لا محالة له ظل . أي إن هذا إما في الصحراء أو في الحقول التي لا تتخذ مواضع للراحة . وفي رواية أخرى عند الإمام أحمد عن ابن عباس : « اتقوا الملاعن الثلاث ، قيل : وما الملاعن الثلاث يا رسول الله ؟ قال : أن يقعد أحدكم في ظل يُستظلّ فيه ، أو في طريق ، أو في نفع ماء » وهو ما اجتمع في البئر من الماء .

وأصرح من هذا وأكد في التشديد والتحذير من توسيخ الطرقات :

-
- (١) رواه الكحال .
 - (٢) رواه الترمذي وغيره .
 - (٣) اسم للفضاء الواسع ، وهو كناية عن التغوط .
 - (٤) أمكنة ورود الناس إليها .
 - (٥) وسطه أو أعلاه ، والمراد : نفس الطريق .
 - (٦) رواه أبو داود وابن ماجه من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه ، وهو مرسل .
 - (٧) حائش النخل : هو ما اجتمع منه .

قول النبي ﷺ : « من آذى المسلمين في طرقهم وجبت عليه لعنتهم »^(١) .

والتنزه من البول ليس بالنسبة للآخرين فحسب ، بل بالنسبة للشخص نفسه ، لما فيه من أضرار صحية ودينية ، فقال عليه الصلاة والسلام : « عامة عذاب القبر في البول ، فاستنزها من البول »^(٢) .

ومن أهم أساليب حماية البيئة : ما يسمى اليوم بالحجر الصحي ، لمنع انتشار الأمراض السارية والأوبئة الخطيرة ، لتطويق المرض وحصره في أضيق نطاق ممكن ، وهذا التدبير الاحترازي أو الوقائي قرره الإسلام منذ نشأته الأولى ، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يورد مُمرِضٌ على مُصِحٍّ »^(٣) وفي حديث آخر للبخاري : « وفرّ من المجذوم كما تفرّ من الأسد » وهذا من قبيل الوقاية .

وأما الاحتراز والحجر الصحي : فمستفاد من أحاديث أخرى ، مثل قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إذا سمعتم بالطاعون بأرض ، فلا تدخلوها ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها ، فلا تخرجوا منها »^(٤) .

وهذا تدبير لا ينافي الإيمان بالقضاء والقدر ، لقول عمر رضي الله عنه في الرد على أبي عبيدة بن الجراح القائل : « أفراراً من

(١) رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن عن حُذَيْفَةَ بن أُسَيْد رضي الله عنه : وروى الطبراني في الأوسط والبيهقي وغيرهما من حديث أبي هريرة : « من غَسَلَ سَخِيمَتَهُ بملء طريق من طرق المسلمين ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » والسخيمة : الغائط .

(٢) رواه البزار ، والطبراني في الكبير ، والحاكم والدارقطني ، كلهم عن ابن عباس رضي الله عنه .

(٣) رواه مسلم وأحمد وعبد الرزاق من حديث أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف .

(٤) رواه البخاري ومسلم ومالك في الموطأ والترمذي عن أسامة بن زيد رضي الله عنه .

قدر الله ؟ » : « نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله ... »^(١) .

والتدابير السلبية أو الاحترازية يصاحبها أيضاً التدابير الإيجابية للحفاظ على البيئة وحمايتها من أنواع التلوث ، ومنها العناية بالزراع وغرس الأشجار ، لأن ذلك يؤدي لتوفير جمال البيئة وتلطيفها ولأن الشجرة مجلبة للمطر ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا يغرس المسلم غرساً ، يأكل منه إنسان ولا دابة ولا طائر ، إلا كان له صدقة إلى يوم القيامة »^(٢) وفي رواية أخرى عند البخاري ومسلم والترمذي من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ : « ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، يأكل منه طير ، أو إنسان ، أو بهيمة ، إلا كان له صدقة » .

وإذا عرفنا أن من أهم مقاصد خلق الإنسان ووجوده في الحياة : هو تعمير الكون ، وتمدين الحياة على نحو اجتماعي ، فإن هذه الرسالة أو الأمانة التي يلتزم الإنسان بتنفيذها ، لا يتحقق مقتضاها إلا برعاية البيئة ، والحفاظ على وجودها نقية طيبة ، والابتعاد عن تلويثها بمختلف الوسائل ، وبذل كافة الجهود لتظل البيئة سليمة غير مشوهة ، طيبة الهواء والتربة غير معيبة .

كل هذه الوصايا من أجل خير الإنسان ، واستقرار السلم والأمان ونشر ألوية السعادة ، فلا يعقل بحال من الأحوال وجود اطمئنان في الحياة ، ورخاء في المعيشة ، من غير سلامة الوسط النظيف والكرام ، والبيئة الصالحة غير المشوهة ولا الملوثة .

(١) تخريجه في الحديث السابق (جامع الأصول ٨ / ٣٦١) .

(٢) رواه مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه .

٢- الشريعة الإسلامية وحماية البيئة في وقت الحرب :

الحروب المدمرة ، ولا سيما في عصرنا الحاضر ، حيث تشترك وسائل رهيبة في القتال جواً وبراً وبحراً ، وينجم عن الحروب عادة كوارث وأضرار : تشمل الإنسان والحيوان والنبات والجمادات ، فيقع القتل والجرح ، وتمتلى ساحات المعارك بأشلاء القتلى ، وأنواع الجرحى والمرضى ، وتقتل الدواب ، وتقلع الأشجار ، وتحرق النباتات ، وتدمر المنازل والمتاجر والمؤسسات ، وتصبح المباني معرضة للسقوط في أي وقت .

فإذا لم تسعف الحكومات المرضى والجرحى بالأطباء والممرضين وتعالجهم ، ولم تنقل الموتى لدفنهم ، والتخلص من آثار بقاياهم حتى لا تتفسخ جثثهم ، انتشرت الأمراض الوبائية ، وربما وقعت الحرائق ، ووقعت الفيضانات ، وفاضت المجاري ، وانقطعت وسائل الاتصال ، وحدث الهدم والدمار في كل مكان ، سواء في المدن أو في ساحات القتال .

وفي هذه الحال وجب على الدولة المسلمة وغير المسلمة تدارك الآفات وترميم الأضرار بالقدر الممكن ، وإنقاذ الجرحى ، وعلاج المرضى ، ودفن الموتى ، ومواراة الحيوانات الميتة تحت التراب ، ومنع انتشار الأوبئة والأمراض الخطيرة ، وتطوير آثار التدمير بأقصى سرعة ممكنة ، سواء كان الموتى عرباً مسلمين أو غير عرب أو غير مسلمين ، محاربين أو مدنيين ، رجالاً أو نساء أو أطفالاً .

وللشريعة موقف متميز لحماية البيئة في معاملة الجرحى والمرضى والقتلى في أعقاب الحروب ، سواء أكانوا من المسلمين أم من غيرهم ، لسمو رسالة الإسلام ، وكون الدين دين الله رب العالمين ، ولأن الإسلام

دين الرحمة العامة للعالمين . ومن مظاهر عناية الإسلام بهؤلاء :

- أنه نهى عن قتال غير المقاتلة ، فلا يجوز شرعاً قتل الجرحى والمرضى ، ولا الإجهاز عليهم ، قال النبي ﷺ في فتح مكة : « ألا لا يجهزن على جريح ، ولا يتبعن مدبر ، ولا يقتلن أسير ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن »^(١) . وهذا يخفف من ظاهرة القتل وما قد تؤدي إليه من مشكلات بيئية عديدة ، قد لا يلتفت إلى القتل في أثناء شدة الحرب ، وحمي الوطيس ، وقد يعجز أهل الإسعاف من أداء دورهم المطلوب على وجه أفضل بسبب نيران الأسلحة وكثافتها وتنوعها .

وهذا إسهام من الإسلام في أمور إنسانية ، ومشاركة للاتجاهات الدولية في ضرورة المعاملة الرحيمة بالجرحى والمرضى من جنود العدو .

وأما بالنسبة لجرحانا ومرضانا ، فقد كان للنساء المسلمات دور مشارك وطيب الأثر في جهاد الأعداء ، ومعالجة هؤلاء ، حتى لا تكون الجروح والأمراض سبباً للمضاعفة وعسر العلاج ، عن أم عطية الأنصارية قالت : « غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات »^(٢) ، أخلفهم في رحالهم ، فأصنع لهم الطعام ، وأداوي الجرحى ، وأقوم على المرضى »^(٣) .

وعن الزبيبة بنت معوذ قالت : « كنا نغزو مع رسول الله ﷺ ، فنخدم القوم ، ونسقيهم الماء ، ونرد الجرحى والقتلى إلى المدينة »^(٤) .

(١) رواه عبد الرزاق في الجامع ، وابن أبي شيبة ، والبيهقي .

(٢) يقال للمعركة التي شارك فيها النبي ﷺ : غزوة ، وليست الغزوة بالمعنى القبلي القديم أو الشائع : وهو النهب والسلب والقتل غير المسوّغ أو الهجوم الظالم أو الجائر .

(٣) رواه أحمد ومسلم وابن ماجه عن أم عطية رضي الله عنها .

(٤) رواه أحمد والبخاري عن الربيع رضي الله عنها .

وقد عُنت الدول الحديثة بشأن المرضى والجرحى في ساحة الحرب ، منذ عام ١٨٦٣م ، لأن الاعتبار الإنسانية تقضي على كل الدول المحاربة بأن تعنى بجرحى ومرضى العدو الذين يقعون في أيديها ، عنايتها بجرحاها ومرضاها الذين يصابون في الميدان . ونظمت اتفاقيات جنيف لعام ١٨٦٤ ، ١٩٢٩ ، و ١٩٤٩ واجبات الدول المحاربة نحو جرحى ومرضى الحرب البرية . وتأسست جمعيات دولية للعناية بالجرحى والمرضى ، مثل جمعية الصليب الأحمر الدولية منذ عام ١٩٢١ ، وساعدتها في عملها مؤسسات الصليب الأحمر ، والهلال الأحمر الوطنية التي تخضع لقواعد دولية مهمة^(١) .

وأما القتلى : فنص فقهاؤنا على أنه يكره (أي يحرم) التعذيب والتمثيل بالقتلى ، وهو القطع والتشويه ، بعد الظفر . والمثلة : هي النكال عند القدرة على الأعداء^(٢) . وكره العلماء نقل رؤوس القتلى من بلادهم إلى بلاد المسلمين^(٣) . كل ذلك يعدّ إكراماً للميت ، ومنعاً من احتمالات تلويث البيئة بأمراض تحدث . قال النبي ﷺ : « ادفنوا القتلى في مصارعهم »^(٤) . وقد دفن المسلمون بأمر نبيهم قتلى المشركين في قليب (بئر لم تطو) بعد معركة بدر ، وحفرت لقتلى يهود

(١) قانون الحرب والحياد للدكتور محمود سامي جنيّة ، ط ١٩٤٤ : ص ٢٧٣ وما بعدها ، مبادئ القانون الدولي العام لأستاذنا المرحوم الدكتور محمد حافظ غانم : ص ٦٠٣ ، الطبعة الثانية .

(٢) الأم للشافعي ١٦٢/٤ ، الخرخشي ١٣٤/٣ ، الطبعة الثانية ، المختصر النافع في فقه الإمامية : ص ١١٢ .

(٣) شرح السير الكبير للسرخسي ٧٨/١ وما بعدها ، الدردير في الشرح الكبير وحاشية الدسوقي ١٦٥/٢ ، المذهب ٢٣٦/٢ ، الشرح الكبير للمقدسي ابن قدامة . ٤٥٩/١٠ .

(٤) رواه أصحاب السنن الأربعة عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

بني قريظة خنادق في سوق المدينة المنورة لإلقاءهم فيها .

وجاء في تعديل اتفاقية الصليب الأحمر سنة ١٩٢٩ ، و ١٩٤٩ : أنه يجب على الدول المحاربة نحو القتلى : احترام جثثهم ، ولزوم دفنهم ، وسرعة تبادل المعلومات عنهم ، وإيقاف القتال مدة لنقلهم ودفنهم ، كما يوقف أحياناً لإعانة الجرحى الموجودين في ميدان القتال ، فيمتنع على الدول المتحاربة العبث بأشلاء القتلى ، والتمثيل بهم ، وسلب ما يكون معهم من نقود أو حلي أو أشياء أخرى ذات قيمة ، وأن تعمل على إعادة الأشياء بقدر المستطاع إلى أسرهم . ويجب دفن جثث القتلى بعد تقديم المراسم الدينية الواجبة لهم . ويلزم التحقق من شخصية الموتى ، وإرسال المعلومات عنهم إلى دولهم . ومن واجب القواد المتحاربين إيقاف القتال مدة ، باتفاق يسمى « كارتيل » في سبيل جمع جثث الموتى ، وكذلك يجب شرعاً على الدول المتحاربة حماية المجتمع والإنسان من آثار الحروب الأخرى غير القتل ، من حرائق وانتشار أضرار الأطعمة الملقاة ، ومنع كل وسائل الحرب المدمرة تدميراً جماعياً ، مثل الغبار الذري ، واستعمال المواد الكيميائية السامة ، والغاز المميت للأعصاب ، ونحو ذلك من أساليب الإبادة الجماعية .

* * *

الخلاصة

البيئة التي خلقها الله جميلة وبهية ونافعة ، ولكن امتدت يد الإنسان في الغالب إلى جنباتها وأحوالها ، فأفسدتها ، أو شوهتها ، أو أفقدتها جمالها ، فتجب العودة إلى أصلها الطبيعي الإلهي ، لينعم بها الإنسان ، ويتفاعل معها ، ويحيا في جمالها ، ويحميها من كل آفات التلوث والأضرار .

وأسباب التلوث كثيرة : أهمها سوء نشاط الإنسان وتصرفاته وطيشه وعجلته ، وسوء آثار المعامل والمصانع ، وما تلقيه من أدخنة ، ونفايات سامة ، أفسدت التربة والشجر والهواء ، وشوهت جمال الجمادات ، وكذلك الأضرار الناجمة عن التصحر وقطع الأشجار ، وامتدت رقعة الصحراء بنسبة ٣٠٪ وهي تزداد على الدوام .

ومن الأسباب : تفجر السكان ، وسوء تخطيط القرى والمدن ، والمطارات ، وتلوث مياه الشرب والسقي والبحر والنهر .

ومنها : هذه السيارات وغيرها من الآلات الميكانيكية التي تنشر الحرارة والدخان والنفايات الضارة . ومنها ما هو عالمي : وهو ما خلفته الثورة الصناعية ، من أضرار كثيرة في البيئة العامة والخاصة ، وما أحدثته الاختراعات المدمرة ، كالقنابل الذرية التي استخدمت أحيانا ، وما سبقها من التجارب الذرية ، وما أعقبته من آثار التشويه

والدمار في النبات والإنسان والحيوان ، وكذلك انفجار بعض المفاعلات النووية أو تسرب الإشعاع الذري ، واستخدام الأسلحة الكيميائية والبيولوجية الخطيرة في الحروب الدولية ، والأسلحة الصاروخية ، وقنابل الطيران ، ومدافع البحار وغيرها ، ودفن النفايات النووية ونحوها من الغازات في شطآن البحار المجاورة للبلاد المتخلفة ، وهكذا يتبين ما أدت إليه تطبيقات العلوم الحديثة من آثار رهيبة ، مثل تلويث البيئة ، وتخريب المجال الحيوي للأرض .

وكذلك الحرائق المفتعلة وحرائق الحروب ، والفيضانات ، والأحداث الكونية الخطيرة ، مثل ثقب منطقة أو غلاف الأوزون .

والإنسان الآثم هو في النتيجة فريسة أو ضحية كل هذه الأحداث . وكان من الواجب المبادرة إلى حماية البيئة من كل أسباب أو عوامل التلوث ، وما يزال التقصير في هذا الاتجاه واضح المعالم ، على مستوى الوطن والدول ، ولا سيما الدول الصناعية الكبرى .

وأضرار التلوث بالإضافة إلى ما يصيب الإنسان من موت وتشوه وأمراض مستعصية ، أفسدت المدنية الحديثة ، وألحقت الفساد والسوء بالحضارة العالمية .

والعمل بمبدأ الوقاية من التلوث وحماية البيئة ألزم وأوجب من تدارك آثار التلوث ، ومحاولة ترميمها ، لأنه يصعب في العادة مهما بُذل في سبيل العلاج تدارك المخاطر واستئصالها . والشواهد على هذا كثيرة ، ولا سيما الإخلال بالظواهر الكونية ، كنقص كمية الأوزون ، وارتفاع حرارة الأرض ، والتغيرات الأرضية .

وكان وما يزال للشريعة الإسلامية إزاء الاتفاقيات والمعاهدات الدولية دور متميز ينبع من دافع العقيدة ، ويتصل بالتدين الصحيح ،

سواء في وقت السلم أو في وقت الحرب .

فقد أمر الإسلام بالطهارة أو النظافة ، في النفس والبدن واللباس والمكان والزمان والاجتماع ، وجعل ذلك فرضاً لازماً لممارسة العبادة ، أو أدباً عالياً يثاب الإنسان على فعله ، كما حرّم الإسلام كل نواحي الفساد والإفساد في التربة والطريق ، والظل ، والماء والبر والبحر وكل ما يحيط بالإنسان . وألزم الإسلام في وقت الحرب معالجة المرضى ، وإسعاف الجرحى ، ودفن القتلى ، وإطفاء الحرائق ، وتجنب التدمير ما أمكن ، لأن كل ذلك فساد ، والله لا يحب الفساد .

ولا نجد بهذا الشمول والاحتياط والعلاج ديناً غني بالبيئة والإنسان والإنسانية مثل الشريعة الإسلامية ذات الأصل أو المنشأ الإلهي .

* * *

الاقتراحات

هذه اقتراحات تقلل من الإصابة بالتلوث ، وتعمل على حماية البيئة ، واستئصال كل ظواهر العبث والخلل والإضرار والإفساد :

١- ضرورة تخصيص زوايا يومية في وسائل الإعلام كلها ، من صحافة ومجلات ومقالات وتلفاز وإذاعة ، للحديث المنبّه والمؤثر عن سلامة البيئة ، والتحذير من الفتك بها ، وإيضاح مساوئ التلوث وآفاته ومخاطره على الإنسان ذاته في عاقبة الأمر .

٢- التوعية المستمرة لما تسببه المخلفات الملقاة في الزوايا والشوارع والطرق من أضرار وأخطار ومفاسد صحية واجتماعية وبيئية ، لأن السلامة أو الأمن أمر ضروري في محيط العمل ، ولا سيما السلامة الصناعية بمعناها الواسع : وهي اتخاذ التدابير اللازمة لتوفير شروط السلامة داخل المنشأة الصناعية ، ويشمل هذا : سلامة الأشخاص ، وسلامة المباني ، وسلامة المواد الأولية والمنتجات ، وسلامة الجوار . والسلامة والحذر عاملان مهمان جداً في البيئة العملية .

٣- العناية ببحث أسباب تلوث البيئة ، ولزوم حمايتها في مراحل الدراسة والتعليم ، ولدى العمال والصنّاع والزراع ، والاعتماد على التربية وتطوير المؤسسات الخاصة بالبيئة ، وتطبيق القانون .

٤- على الدولة استنفار جميع طاقاتها وإمكاناتها لإطفاء الحرائق ،
وتجنب كل ما يضر بالناس والمجتمع ، وتلافي التأثيرات المربعة للزلازل
والبراكين والفيضانات ، ومنع انتشار الأمراض الخطيرة بسببها .

٥- تجب المبادرة إلى المزيد من المعاهدات الدولية لحماية البيئة
من آثار التلوث بأسبابه المختلفة ، والتخلص من الأسلحة الذرية ،
وتحريم التجارب النووية والجرثومية والكيميائية ، وتطوير المفاعلات
الذرية بترسانة محكمة ، ريثما يتم دفنها إلى الأبد ، وذلك من غير
استثناء دولة ما ، سواء الدول الكبرى أو الدول العنصرية كإسرائيل
والهند وغيرهما .

٦- فرض غرامات مؤثرة على العابثين ، وكل من يلقي المخلفات في
الطرق ، سواء المشاة وراكبو السيارات والآلات الزراعية والصناعية .

٧- الحفاظ على الغابات والمناطق المشجرة ، ومنع امتداد يد
الإنسان لإحراقها أو قطعها .

٨- العناية بنظافة الحدائق العامة وأماكن التنزه والاصطياف ،
وشواطئ الأنهار والبحار ، والحرص على جمالها ، وإزالة كل ما يؤذي
العين ، ويشوه الطبيعة ، ويسيء إلى النفس والمشاعر ، وضرورة إيجاد
حمامات لقضاء الحاجة في الحدائق العامة .

٩- تكاتف الجهود الأمنية للدول والبشرية العادية ، في الإخبار عن
المخالفين والمستهترين الذين يهددون البيئة بأضرار صحية أو غير
إنسانية ، تؤدي إلى تشويه جمال المدن والقرى والبلاد ، والعبث
بمعالم المدينة والحضارة .

١٠- متابعة رصد أحوال البيئة ودراساتها في الحاضر والمستقبل ،
والوقاية من التلوث البيئي ، واستئصال كل أسباب التلوث .

١١- إلقاء المخلفات والنفايات في الأماكن والأزمنة المخصصة

لها .

١٢- شمول العناية بالبيئة في التربة والماء والطرق ، لأنها من أهم

مصادر التلوث .

١٣- العمل على تركيب آلات امتصاص أو تصفية لكل أضرار

السيارات والآلات والأفران ومداخل المصانع والمعامل ، وإبعادها عن

المناطق الآهلة بالسكان .

١٤- إن العمل الدؤوب والمحاولات الجادة على رعاية شؤون

البيئة ، وحمل الإنسان والدول على رعايتها : واجب وطني وقومي

وعالمي ، وضرورة حيوية وحساسة ، للحفاظ على سلامة البشرية ،

وتخليصها من ألوان الهموم والمعاناة التي تمارسها .

١٥- التعاون على تخليص الدول الفقيرة والنامية في آسيا وإفريقية

من آفات الجهل والمرض والفقر والقذارة ، والتوجيه لتربية الطفل

والمجتمع على احترام البيئة ، والحرص على جمالها ونفعها ، ومنع

إفسادها وتلويثها .

١٦- العناية بتثقيف المرأة ، وإشعارها بواجباتها ودورها في تربية

الأولاد في البيت والشارع ومختلف الأماكن .

١٧- لا بد من تقديم نوعية جيدة ونظيفة للمياه الساحلية ، ومناقشة

مدى تأثير المصادر الأرضية على المياه الجوفية ، وكذلك التعرف على

تلوث البيئة البحرية نتيجة الصرف الصحي والصناعي ، وتقويم المخاطر

الصحية للبيئة البحرية ، والتعرف على مدى تأثير المشاريع الإنمائية

على البيئة البحرية .

١٨- إن الحفاظ على البيئة السكنية يتطلب ما يأتي :

أ - التزام طرق آمنة للتخلص من النفايات ، كالحرق ، والدفن ، وترك إعادة الاستعمال .

ب - اتخاذ التدابير القانونية والإدارية : وتتمثل بتشريع قوانين تفرض الحدود القصوى لإنتاج النفايات ، سواء السائلة منها أو الصلبة أو الهوائية ، بحيث تتماشى مع متطلبات النمو الاقتصادي وصحة المواطن . ولا بد أيضاً من وجود هيكل إداري لرقابة تطبيق القوانين ، والتنسيق مع الأجهزة الأخرى المعنية بقطاعات البيئة .

ج - العناية بالبيئة في التدابير التربوية ، ففي المرحلة الابتدائية تكون دراسة البيئة جزءاً من التربية الوطنية والقيم الخلقية ، وفي التعليم الثانوي تثار إشكاليات ورؤوس مواضيع المواد البيئية .

د - اللجوء للحوافز الاقتصادية بفرض ضرائب وغرامات على المخالفين ، وصرف مكافآت وإعانات للمتخلفين .

هـ - التركيز على المسؤولية الفردية باعتبار الفرد مصدر المشكلات البيئية ، ليقوم كل فرد بمسؤوليته أحسن قيام . وعلى وسائل الإعلام توعية الأفراد وتبسيط مفاهيم البيئة ، كما على الحكومة العناية بسياسة فعالة ووضع استراتيجية للتنمية الاقتصادية ، لتتسجم مع البيئة السليمة .

والحمد لله رب العالمين .

* * *

حفظ الصحة وسلامة البيئة

مقصد تشريعي أساسي

لقد عني العالم اليوم عناية كبيرة ، شغلت الوسط العلمي والاجتماعي والسياسي ، بأمر سلامة البيئة في البر والبحر والجو ، لأسباب ثلاثة : هي وجود ظاهرة المجاعة الناشئة عن القحط والجفاف في إفريقية وغيرها ، وتسرب الغازات السامة والمواد الكيماوية ، كما حدث في الهند عام ١٩٨٧ ، وانتشار الغبار الذري بسبب التجارب النووية سواء في الصحارى أم في البحار ، فإن تلوث البيئة البحرية أكثر خطراً من التلوث الإشعاعي ، وبسبب حادثة انفجار المفاعل النووي في (تشيرنوبل) ٢٦ أبريل (نيسان) عام ١٩٨٦ م في روسيا التي أفسدت الخضار والفواكه واللحوم ، وامتدت إلى أوروبا ، ومات كثيرون بسببها ، هذا فضلاً عن استخدام الأسلحة الكيماوية في بعض الحروب القائمة والتي لا يقتصر أثرها على الجيوش المتحاربة ، وإنما يمتد إلى المدنيين الآخرين . كما أن استعمال السجاير يلوث البيئة ويؤدي إلى موت أربعة ملايين نسمة كل عام .

وأخطر هذه الأسباب : الغبار الذري الذي قد يكون في يوم ما سبب فناء العالم ، وكأنه الدخان المشار إليه في القرآن الكريم : ﴿ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٦﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧﴾ رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴾ [الدخان : ١٠-١٢] .

وقد حذرت من هذه المخاطر دراسة علمية استمرت ٣٠ شهراً عن أزمة البيئة في العالم ، قامت بها المنظمة العالمية للبيئة والتنمية التابعة للأمم المتحدة ، وقررت هذه الدراسة أنّ تلوث البيئة في إفريقية والشرق الأوسط وأمريكا اللاتينية وآسيا ، قد أصبح بالفعل مصدراً لعدم الاستقرار السياسي والتوتر الدولي . وجاء في التقرير : إن حوالي ٦٠ مليون شخص معظمهم من الأطفال قد ماتوا في جميع أنحاء العالم من أمراض الإسهال نتيجة شرب ماء غير نظيف ، ولسوء التغذية .

وأريد أن أبين موقف الإسلام من سلامة البيئة ، لأن ديار المسلمين أكثر البلاد اليوم تعرضاً لخطر تلوث البيئة ، وأن الموت الجماعي يفترس الآلاف والملايين منهم ، كما قال التقرير المتقدم . ويناسب ذلك في وقتنا المعاصر يوم حماية البيئة في ٥/٦/٢٠٠٠ .

مما لاشك فيه أن قوة الأمة بقوة أفرادها مالياً وصحياً وجسدياً ، وأن توفير المناخ الطيب ، والصحة العامة ، وسلامة البيئة عنصر ضروري لتوفير مقومات الحياة المطلوبة شرعاً ، وأن الحفاظ على الصحة والعافية واجب مفروض على كل مسلم ومسلمة ، ومقصد من مقاصد التشريع الإسلامي الأساسية ، لأن الحفاظ على الحياة والنفس من ضروريات الدين الخمس ، كما هو معلوم ، وهي (الدين ، والنفس ، والعقل ، والنسب ، أو العرض ، والمال) .

فليست الحياة مجرد حق مقدس ، وإنما الحفاظ على الحياة واجب شرعي أصيل ، بدليل أن تناول الطعام والشراب ، وإن كان في الأحوال العادية مباحاً ، فهو فرض واجب يأثم تاركه عند التعرض لخطر الموت والهلاك ، فقال الله تعالى :

﴿ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِكُمُ إِلَى الْهَلَكَةِ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

وكما أن المجتمع أو البيئة ليس ملكاً خاصاً لأحد ، وإنما هو من حق الجميع ومشاع لكل الناس ، كذلك النفس الإنسانية ليست ملكاً لصاحبها . يتصرف فيها كيفما يشاء بهواه ، وإنما البيئة والحياة الإنسانية والنفوس البشرية ملك لله عز وجل ، ولا يحق لأي إنسان فرداً أو جماعة أو دولة الاعتداء على ملك الله الذي جعله حقاً في الحياة الهائلة لكل إنسان وجماعة ، فقال الله سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٩] .

وقد فرض الإسلام أحكاماً كثيرة للعناية بالصحة وسلامة البيئة بوسائل وقائية وعلاجية :

أما الوسائل العلاجية فمعروف حكمها ، قال النبي ﷺ - فيما يرويه أحمد وأصحاب السنن وابن حبان والحاكم عن أسامة بن شريك - : « تداووا عباد الله ، فإن الله تعالى لم يضع داء ، إلا وضع له دواء ، غير داء واحد : الهرم » .

وأما الوسائل الوقائية المادية والمعنوية : فهي ما يجب عليّ بيانه ، لأن الوقاية خير من العلاج ، لذا رد النبي ﷺ على المقوقس هدية الطبيب قائلاً : « إنا قوم لا نأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لا نشبع » .

ومن وسائل الوقاية : منع الضرر بالنفس وبالبيئة وبالمجتمع ، فقال الرسول ﷺ - فيما يرويه أحمد ومالك وابن ماجه عن ابن عباس - : « لا ضرر ولا ضرار » وقال أيضاً فيما يرويه الترمذي : « ملعون من ضارَّ مؤمناً أو مكر به » « من ضارَّ ضرار الله به » .

ومنها : التغذية بالطيبات الطاهرات غير المستخبثات ذات السميات والمضار لتحقيق نظافة المأكل والمشرب ، وبالتالي نظافة المسكن

والملبس ، فقال الله تعالى ﴿ أَلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ ﴾ [المائدة : ٥] ﴿ يَتَأَيَّهَا
الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ٥٧] ﴿ وَيُحِلُّ
لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبِيثَاتِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] والغذاء المناسب
يطرد كثيراً من الأمراض كالسل وغيره ، ويحفظ الصحة ، بل وينمي
العقل ، ويلطف المشاعر والعواطف . ومنها قتل الحشرات والمؤذيات
والفواسق الخمس ، قال ﷺ فيما رواه مسلم وغيره : « خمس فواسق
يقتلن في الحل والحرم : الحية ، والغراب الأبقع ، والفأرة ، والكلب
العقور ، والحدأة » ، ولا شك أن التبغ من الخبائث ، وقد ثبت ضرره
الخاص والعام ، فينبغي تجنبه حماية للبيئة .

ومنها : خصال الفطرة العشر ، أخرج أحمد و مسلم وغيرهما عن
عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « عشر من الفطرة :
قص الشارب ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، واستنشاق الماء ، وقص
الأظافر ، وغسل البراجم - عُقَد الأصابع - ونتف الإبط ، وانتقاص الماء
- يعني الاستنجاء - والمضمضة » ، وأخرج ابن ماجه « السواك مَطْهَرَةٌ
للفم ، مَرْضَاةٌ للرب » وأخرج النسائي : « كان ﷺ إذا أراد أن يأكل
غسل يديه » ، وأخرج أبو داود « كان ﷺ إذا توضأ يده يمسح أصابعه
بخنصره » ، وأخرج ابن ماجه « أن النبي ﷺ مسح أذنيه ، داخلهما
بالسبابتين ، وخالف إبهاميه إلى ظاهر أذنيه ، فمسح ظاهرهما
وباطنهما » وأخرج أيضاً « أن النبي ﷺ كان يمسح الموقين » أي ينظف
العينين ، وأخرج أبو داود : « من كان له شعر فليكرمه » .

والختان سنة عند الحنفية والمالكية ، واجب أو فرض عند الشافعية
والحنابلة ، ويكره المشي بلا نعل في الرّجلين ، والانتعال قائماً ،
وإطالة الثياب حتى لا تصير مباءة للأقذار ، وأوساخ الشوارع ، ونقل
المؤذيات .

ويسن إطفاء الحمى وحرارة الرأس بالماء البارد : « الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء »^(١) روى ابن ماجه عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « الحمى كيد من جهنم فتحوها عنكم بالماء البارد » .

ومن أهم الوسائل الوقائية : منع أسباب الأمراض النفسية والبدنية أيضاً ، وهي النزاع والشجار ، والأحزان ، واقتحام الأخطار في غير ساحات الجهاد ونحوها مما لا داعي له ، والسخط وعدم الرضا بالقضاء والقدر ، فقد ثبت أن القلق والهموم والاضطراب أسباب لكثير من الأمراض النفسية ، كالاكتئاب وغيره ، والجسدية ، كأمراض القلب وضغط الدم والقرحة وغيرها ، وقد استعاذ النبي ﷺ بدعائه قائلاً : « اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن ، ومن العجز والكسل . . » .

وهناك وسائل إيجابية ووقائية معاً كالتضامن والتماسك والتعاون والتآخي والإصلاح بين الناس وفعل المعروف والإحسان وحب الخير للآخرين ، ومحبة العمل ومحاربة البطالة ، والتحية والسلام على أهل البيت والجيران والناس ، فالسلام سبب التحابب كما جاء في الحديث الصحيح ، وكذا البشاشة والتبسم ، ففيهما راحة للنفس والأعضاء ، وسبب لكسب محبة الآخرين ، أخرج الترمذي : « تبسمك في وجه أخيك لك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة ، وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة » . ومن أخطر التدابير الوقائية لنظافة الباطن : طهارة النفس من أمراض القلوب التي تبلغ نحو

(١) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة بلفظ : « الحمى كير من جهنم ، فتحوها عنكم بالماء البارد » .

الأربعين كالغل والحقد والحسد ، والتباغض ، والتدابير ، والتقاطع ، والمنافسة غير المشروعة في البيع والمساومة ، والبيع على البيع ، والخطبة على الخطبة ، قال ﷺ : « لا تباغضوا ، ولا تحاسدوا ، ولا تناجشوا . . » ، « لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيعرض هذا ، ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ صاحبه بالسلام » .

ومن الوسائل السلبية في الوقاية : توقي كثير من الأمراض المعدية ، ومنع انتشار الأمراض البوائية كالكوليرا والطاعون ، وحصر المرض في مكانه وهو ما يسمى بالحجر الصحي ، وإن كان الاعتقاد الثابت أن الله سبحانه وتعالى هو الشافي والممرض ، قال الله تعالى حاكياً قول إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿ [الشعراء : ٧٩-٨٠] ، وقال ﷺ بعد النهي عن العدوى بذاتها لا بفعل الله : « وَفِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ » ^(١) . وهذا من قبيل الأخذ بالأسباب الظاهرية التي أمرنا الله تعالى بها ، وهي من قدر الله ، كما قال سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه في طاعون عَمَواس لأبي عبيدة بن الجراح رضي الله تعالى عنه : « نعم ، نفر من قدر الله إلى قضائه » أو « من قدر الله إلى قدر الله » . وقال عليه الصلاة والسلام فيما رواه الترمذي عن الرُّقِيَّة : « هي من قدر الله » ، فكما أن المرض من قدر الله ، والتداوي من قدر الله ، تكون الوقاية من قدر الله تعالى .

وكل ما ورد في القرآن الكريم من آيات التطهر والتطهير والطهارة البالغ عددها حوالي ٣٠ آية ، إنما كان لإيجاب طهارة النفس المؤمنة ، والبيئة الإنسانية في الظاهر والباطن ، ويظهر ذلك واضحاً في تصنيف

(١) رواه الطبري .

هذه الآيات في الموضوعات الآتية :

١- نعمة المطر : أعظم نعمة لتطهير البيئة من الملوثات كلها ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾ [الفرقان : ٤٨] ، ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾ [الأنفال : ١١] .

٢- تطهير بيوت العبادة من الأرجاس المعنوية كالشرك والوثنية ، والمادية باعتبارها أماكن التجمعات ، قال الله تعالى : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [الحج : ٢٦] .

٣- طهارة آل البيت والمجتمع من الملوثات المعنوية والمادية ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] وقال سبحانه مبيناً حكمة فريضة الوضوء والغسل : ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ ﴾ [المائدة : ٦] .

٤- وجوب طهارة الثوب والبدن والمكان في الصلاة ، ليكون ذلك حاجزاً آمناً من التلوث ، وملازمة النظافة ، وحفظ الصحة ، قال الله تعالى أمراً رسوله : ﴿ وَبِالْبَلَدِ فَطَهِّرْ ۖ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ [المدثر : ٤-٥] ومدح الله سبحانه وتعالى جماعة في مسجد قباء يستنجون بالماء ، فقال : ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴾ [التوبة : ١٠٨] وفي آية أخرى تعميم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

٥- الغسل المتكرر بين الأزواج والزوجات ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ﴾ [المائدة : ٦] وقال سبحانه : ﴿ يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِ سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا ﴾ [النساء : ٤٣] هذا ، وللغسل موجبات أخرى كالحيض والنفاس .

٦- طهارة الطعام والشراب في الجنة ، ويقاس عليه الموجود في الدنيا ، قال الله عز وجل : ﴿ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴾ [الإنسان : ٢١] ، وأمر الله الرسل بأكل الطيبات الطاهرات في الدنيا ، فقال : ﴿ يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوْا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ [المؤمنون : ٥١] .

٧- الطهارة لتلاوة القرآن ومسه ، ولمجالس العلم ، فقال الله تعالى : ﴿ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة : ٧٨-٧٩] ، ﴿ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴾ [البينة : ٢] ، ﴿ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ [عبس : ١٣-١٤] .

٨- جعل الله العذراء المطهرة المثل الأعلى للنساء في الدنيا ، والهوريات المطهرات للرجال في الآخرة ، فقال سبحانه عن السيدة مريم : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢] ، وقال عز وجل عن الحوريات : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥] .

٩- تطهير المال بالزكاة من شوائب الحرام واللغو ، ليكون المال المتنتفع به طيباً على النفس ، هنيئاً مريئاً غير معكر صفواً ، ولا ضار جسداً ، قال الله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

١٠- إن إباحة المتعة الزوجية مشروطة بالطهارة ، قال الله تعالى : ﴿ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

١١- التطهر من الفواحش أصل من أصول رسالات الرسل ، لذا قاومهم أهلها فقالوا : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّنْطَهَرُونَ ﴾ [النمل : ٥٦] وباكتشاف خطورة مرض نقص المناعة أو (الإيدز) وأنه

مرض مميت مُعْدٍ ، ظهرت معجزة جديدة للقرآن الكريم حينما حرم هذه الفاحشة وشنع على أهلها ، فقال الله تعالى حاكياً قول لوط عليه السلام لقومه : ﴿ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٠] ، ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء : ١٦٥] لذا عوقبوا بتدمير أرضهم واستئصالهم بريح مصحوبة بالحجارة المميتة .

١٢- تحريم العضل : أي منع المرأة من الزواج ، لأنه يؤدي إلى الفاحشة ، قال الله تعالى بعد بيان التحريم : ﴿ ذَلِكَ لَكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٣٢] .

١٣- منع مخاطبة أزواج النبي ﷺ من غير حجاب ، تحقيقاً لطهارة القلب من الوسوس الشيطانية والهواجس المريبة ، فقال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسَأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] .

١٤- تطهير المجتمع من أمراض النفاق التي يعيش فيها كل مظاهر الضعف والخبث والانزواء في البيوت للمكيدة والمكر وإشاعة الشائعات الضارة ، قال الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطْهَرْ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة : ٤١] .

وليس هناك وسيلة أنجع لحفظ الصحة ، والوقاية من تلوث البيئة وإزالة الغبار ، من فرضية الوضوء المتكررة خمس مرات أو أقل في اليوم والليلة ، لغسل الأعضاء الظاهرة المعرضة للتلوث : وهي الوجه ، والأيدي ، ومسح الرأس ، وغسل الرجلين ، في آية المائدة مع ملاحظة سنن الوضوء الأخرى كالمضمضة والاستنشاق ومسح الأذنين ظاهراً وباطناً .

وغسل الجسد يتكرر أيضاً في اليوم أو الأسبوع في الحضر والسفر :

إما على سبيل الفرضية والوجوب ، كغسل الجنابة ، والغسل بعد الحيض والنفاس ، وغسل الميت ، وإما على سبيل الندب والاستحباب ، كغسل الجمعة والعيدين ، وللإحرام بالحج والعمرة ، وصلاة الاستسقاء والكسوف ، وبعد غسل الميت ، لإزالة ما عساه قد علق بالغسل ، والاعتكاف ، وعند تغيير رائحة البدن ، وحضور مجامع الناس .

ورغب الإسلام في نظافة الثياب والحذاء واختيار البياض في لباس الجمعة والإحرام ، فقال النبي ﷺ مجيباً الصحابي الذي ظن أن ذلك من الكبر - فيما يرويه مسلم والترمذي عن ابن مسعود - : « إن الله جميل يحب الجمال » وصان الإسلام بيئة المساكن من التلوث ، فأمر النبي ﷺ بنظافة البيوت ، قائلاً فيما رواه الترمذي عن سعد : « إن الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكرم ، جواد يحب الجود ، فنظفوا أفنيتمكم ، ولا تشبهوا باليهود » وقال أيضاً فيما رواه البخاري في الأدب المفرد : « كل كلمة طيبة صدقة ، وعون الرجل أخاه صدقة ، والشربة من الماء تسقيها صدقة ، وإمطة الأذى عن الطريق صدقة » .

ونهى النبي ﷺ عن التبول والتغوط في ظلال الأشجار ، ووضفاف الأنهار ، وفي الماء الجاري والراكد ، فقال فيما يرويه الإمام أحمد عن ابن عباس : « اتقوا الملاعن الثلاث : أن يقعد أحدكم في ظل يستظل فيه ، أو في طريق ، أو في نقع ماء » أي : أن يقعد لقضاء الحاجة في هذه الأماكن وفي رواية أبي داود وغيره : « اتقوا الملاعن الثلاث : البراز في الموارد ، وقارعة الطريق ، والظل » .

وحث السنة النبوية على الزراعة وغرس الأشجار ، لمنع امتداد الغبار ، وجلب الأمطار ، والانتعاش بالخضرة في التنفس والاستمتاع

بالظل ، أو الانتفاع بالثمار ، فقال عليه السلام في الحديث الصحيح :
« إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع ألا يقوم حتى
بغرسها ، فليغرسها » . ولو عني المسلمون بالتشجير العناية اللائقة
الكافية ، لانقلبت بلادهم جنات خضراء وبساتين نضرة .

والخلاصة : إن الإسلام معني عناية فائقة بصحة الفرد ،
والجماعة ، والمجتمع ، والبيت ، والبلد ، والحنوت ، والملبس ،
والمأكل ، والمشرب ، والبيئة البرية ، والبحرية ، والجوية ، كما أنه
معني بنظافة الظاهر والباطن ، فإن كثيراً من أمراض العصر منشؤها
العوامل النفسية التي لانجدها عند المؤمنين المتدينين . والصحة
وسلامة البيت من ضروريات الدين ومقاصد التشريع ، والعافية من أجل
النعم على الإنسان بعد الإيمان ، لذا قال النبي ﷺ فيما يرويه البخاري
وغيره : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة والفراغ » وقال
أيضاً فيما يرويه أحمد والترمذي : « سلوا الله العفو والعافية ، فإن أحداً
لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية » وروى ابن ماجه : « من أصبح
منكم معافى في جسده ، آمناً في سربه ، عنده قوت يومه ، فكأنما
حيزت له الدنيا » .

* * *

المحتوى

٣	تقديم
٥	معنى البيئة ومكوناتها
٧	تلوث البيئة وأسبابه وأضراره وعوامل التلوث وآثاره
١٣	الإنسان والبيئة
١٥	البيئة والمدينة والحضارة
١٧	طرق الوقاية من التلوث والعلاج الدائم
١٩	موقف الشريعة الإسلامية من حماية البيئة
١٩	١- الشريعة الإسلامية وحماية البيئة في وقت السلم
٢٥	٢- الشريعة الإسلامية وحماية البيئة في وقت الحرب
٢٩	الخلاصة
٣٢	الاقتراحات
٣٦	حفظ الصحة وسلامة البيئة مقصد تشريعي أساسي
٤٧	المحتوى

* * *